خطبة بعنوان

ذِكْر أمثلة لمن وُفِّقوا إلى التوبة إلى الله

بتاريخ/ ١٩ رمضان/ ١٤٤٥هـ

لفضيلة الشيخ

محمد بن عبد الله الإمام

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن خير الحديث كلام الله، وخير الهدىٰ هدي محمد صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة.

أما بعد:

معاشر المؤمنين، سمعتم في الخطبة الماضية التحذير من الغفلة عن أمر التوبة إلىٰ الله، وأن المسلم بحاجة إلىٰ أنه يجاهد نفسه من أجل أن يتوب إلىٰ الله، وأنه لا يرضىٰ لنفسه بوجود الموانع التي اصطنعتها نفسه وهواه وشياطينه من الجن والإنس، بل يحارب ذلك، ويسعىٰ إلىٰ التخلص من ذلك.

وفي مقامي هذا قد رأيت أن أذكر بعض الأمثلة التي تدل علىٰ سهولة التوبة

إلىٰ الله لكن لمن صدق مع الله، واستيقظ من غفلته، ورضي لنفسه بالنجاة.

ألا وإنه ينبغي أن تعلموا أن كل مكلَّف لا يقدر علىٰ التوبة حتىٰ يتوب الله عليه، ومعنىٰ يتوب الله عليه: أن الله عز وجل يُلهمه ذلك، ويوفقه إلىٰ ذلك، ويهديه إلىٰ التوبة، ويسدده ويعينه عليها، لأن الله عز وجل يحب التائبين، ويحب أن يتوب إليه عباده سبحانه وتعالىٰ، ولهذا سمَّىٰ نفسه بالتواب، وسمىٰ نفسه بالغفور ليتوب علىٰ من يشاء ويغفر لمن يشاء.

فيا معشر المسلمين، لنكون آذانـًا صاغية وقلوبـًا واعية من أجل أن ننتفع لعلَّنا أن نكون ممن يبادر بالتوبة إلىٰ الله وأصلح ما بينه وبين الله وجدد عهده مع الله.

وقد قال الله في كتابة الكريم: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد:١٦].

وجاء عند مسلم عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «**ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين**».

﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ أي: ما جاء الوقت وما حان الحين؟ ومعنىٰ: ﴿تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تلين وتخضع وتنقاد لدين الله وشرعه.

فهذه الآية الكريمة قد سمعها من سمعها وتاب إلىٰ الله عند سماعها من تاب.

ومن ذلك: ما أخرجه الإمام البيهقي في "الشُّعَب" بسند صحيح: "أن الفضيل ابن عياض كان شاطرًا يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس، وكان سبب توبته أنه عشق جارية فبينما هو يرتقي الجدران إليها إذ سمع تاليًا يتلو: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد:١٦]. قال: فلما سمعها قال: بلىٰ يا رب قد آن، فرجع فآواه الليل إلىٰ خربة وإذا فيها سابلة، فقال بعضهم: نرتحل، وقال بعضهم: حتىٰ نصبح فإن فضيلًا علىٰ الطريق يقطع علينا. قال: ففكرت وقلت: أنا أسعىٰ بالليل في المعاصي وقوم من المسلمين ههنا يخوفونني وما أرىٰ الله ساقني إليهم إلا لأرتدع، اللهم إني قد تبت إليك، وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام".

فرحل من بلدته خراسان إلىٰ جوار بيت الله الحرام وبقي هناك مقبلاً علىٰ العبادة والعلم والتعليم والإنابة إلىٰ الله حتىٰ اشتهر بعلمه وصلاحه وزهده وورعه رحمه الله تعالىٰ.

وأيضـًا ذكر الإمام القرطبي رحمه الله في "تفسيره" قال: وقد كانت هذه الآية سبب توبة الفضيل بن عياض وعبد الله بن المبارك رحمهما الله. وذكر قصة توبة عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ .

وذكر الحافظ ابن كثير في "البداية والنهاية" وقبله ابن الجوزي في كتابه "المنتظم" قصة، وهي: "أن جعفر بن حرب كان يتقلد الأعمال الكبار للسلطان، وكانت نعمته تقارب نعمة الوزارة، فاجتاز يومًا راكبًا في موكب له

عظيم، ونعمته علىٰ غاية الوفور، ومنزلته بحالها في نهاية الجلالة، فسمع رجلا يقرأ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد:١٦] فصاح: اللَّهمّ بلىٰ، يكررها دفعات وبكىٰ ثم نزل عن دابته ونزع ثيابه، ودخل إلىٰ دجلة واستتر بالماء، ولم يخرج منه حتىٰ فرق جميع ما له في المظالم التي كانت عليه وردها، وتصدق بالباقي، فاجتاز رجل فرآه في الماء قائما، وسمع بخبره، فوهب له قميصًا ومئزرًا فاستتر بهما، وخرج وانقطع إلىٰ العلم والعبادة حتىٰ مات".

معاشر المسلمين، هذه الآية الكريمة عتاب لنا جميعـًا ودعوة لنا جميعـًا، عتاب لنا في تأخرنا عن توبتنا إلىٰ مولانا، وكلنا فقراء إلىٰ التوبة إلىٰ الله، وكلنا مفروض عليه أن يتوب إلىٰ الله، يمسي تائبـًا ويصبح تائبـًا.

فما أكثر ما تُتلىٰ هذه الآية وتُسمَع ولا يكاد أن يستجيب لها إلا القليل من العباد، فكن أيها المسلم الكريم من هذا الصنف القليل.

كذلك أيضـًا: ذكر ابن قدامة المقدسي في كتابه "التوابين": "أن عبد الله بن مرزوق كان مع المهدي في دنيا واسعة، فشرب ذات يوم علىٰ لهو وسماع فلم يصل الظهر والعصر والمغرب وفي كل ذلك تنبهه جارية حظية عنده. فلما جاز وقت العشاء جاءت الجارية بجمرة فوضعتها علىٰ رجله فانزعج وقال: ما هذا؟ قالت: جمرة من نار الدنيا فكيف تصنع بنار الآخرة؟. فبكىٰ بكاء شديدًا ثم قام إلىٰ الصلاة، ووقع في نفسه مما قالت الجارية، فلم ير شيئًا ينجيه إلا مفارقة ما

هو فيه من ماله.

فأعتق جواريه وتحلل من معامليه وتصدق بما بقي حتىٰ صار يبيع البقل وتبعته علىٰ ذلك الجارية.

فدخل عليه سفيان بن عيينة وفضيل بن عياض فوجدا تحت رأسه لبنة وليس تحته شيء، فقال له سفيان: إنه لم يدع أحد لله شيئًا إلا عوضه الله منه بدلًا فما عوضك مما تركت له؟ قال: الرضىٰ بما أنا فيه".

وكم حذَّر الله المؤمنين عن أن يعرِّضوا أنفسهم لعذابه في الدنيا والآخرة، وأشد عذابه وأكبره وأعظمه وأطوله إنه العذاب بالنار، وهكذا يكون في الحياة البرزخية، فمن مات غير تائب إلىٰ الله عرَّض نفسه للعذاب في الحياة البرزخية، يُعذَّب بالنار، عياذاً بالله! وكذلك العذاب الأكبر بها في يوم القيامة عندما يدخلها العبد.

أيها المسلم، كم تمر علينا من آيات فيها ذِكْر النار وما فيها من العذاب، وما فيها من النكال والهوان والخزي، فهي عذاب الله الأكبر، فأين أنت من الشفقة علىٰ نفسك والرحمة بنفسك والإنقاذ لها من وبيل عذاب النار.

ذكر أيضـًا سبط ابن الجوزي رحمه الله في كتابه "مرآة الزمان في تواريخ الأعيان": "أن رجلاً تعلق بباب الشام بامرأةٍ وبيده سكين، لا يدنو منه أحدٌ إلَّا عقرَه، وكان الرجل شديدَ البدن، فبينا الناسُ كذلك، والمرأةُ تصيح في يده، إذ مرَّ بِشْرٌ، فدنا منه، وحكَّ كتفَه بكتف الرجل، فوَقَعَ الرجلُ إلىٰ الأرض، ومضىٰ

بشرٌ والمرأة. قال الفتح: فدنوتُ من الرجل وهو يرشحُ عرقًا، فسألته عن حاله، فقال: ما أدري، ولكنه حاكَّني رجلٌ شيخ، وقال: إنَّ الله ناظرٌ إليك وإلىٰ ما تعمل، فضعفتْ لقوله قدماي، وهبتُه هيبة شديدة، لا أدري من هو، فقلت: بشر الحافي، فقال: واسوأتاه، كيف ينظرُ إليَّ بعد اليوم؟! ثم حُمَّ من يومه، ومات من اليوم السابع".

هكذا العصاة بحاجة إلىٰ أن يعلموا أنهم مفضوحون عند الله، يرىٰ الله أعمالهم، ويسمع الله حركاتهم، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤﴾ [العلق:١٤]، وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٢١٧ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩﴾ [الشعراء:٢١٧-٢١٩]، إلىٰ غير ذلك من الآيات.

فالله يعلم جميع أحوال عبده، يعلم ظاهره وباطنه وجميع حركاته، وهو القائل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ١٤﴾ [الفجر:١٤] أي: يرصد حركات العبد الظاهرة والباطنة، فأين يذهب العبد من رؤية الله إياه ومن نظر الله إليه ومن سماع الله جميع حركاته ومن قدرة الله عليه أن يفضحه، أن يبطش به، أن يأخذه أخذ عزيز مقتدر، فليحذر المسلم من أن يكون من الغافلين.

وذكر ابن قدامة المقدسي رحمه الله في كتابه "التوابين" عن يوسف بن الحسين قال: كنت مع ذي النون المصري علىٰ شاطئ غدير فنظرت إلىٰ عقرب أعظم ما يكون علىٰ شط الغدير واقفة، فإذا بضفدع قد خرجت من الغدير

فركبتها العقرب فجعلت الضفدع تسبح حتىٰ عبرت.

فقال ذو النون: إن لهذه العقرب لشأنًا فامض بنا، فجعلنا نقفوا أثرها فإذا رجل نائم سكران وإذا حيَّة قد جاءت فصعدت من ناحية سرته إلىٰ صدره وهي تطلب أذنه، فاستحكمت العقرب من الحية فضربتها فانقلبت وانفسخت، ورجعت العقرب إلىٰ الغدير فجاءت الضفدع فركبتها فعبرت.

فحرك ذو النون الرجل النائم ففتح عينيه فقال: يا فتىٰ! انظر مما نجاك الله: هذه العقرب جاءت فقتلت هذه الحية التي أرادتك.

ثم أنشأ ذو النون يقول:

يا غافلًا والجليل يحرسه ... من كل سوء يدب في الظلم
كيف تنام العيون عن ملك ... تأتيه منه فوائد النعم

فنهض الشاب وقال: إلهي! هذا فعلك بمن عصاك فكيف رفقك بمن يطيعك؟ ثم ولىٰ فقلت: إلىٰ أين؟ قال: إلىٰ البادية، والله لا عدت إلىٰ المدن أبدًا".

فيا أيها المسلم الكريم، لا تأمن مكر الله وتتكل علىٰ أن الله خيرٌ حافظًا وهو أرحم الراحمين، فتتكل علىٰ حفظه ودفاعه وأنت مُصِرٌّ علىٰ ما يغضبه من المعاصي والآثام، بل يجب عليك في هذه الحال أن تخشىٰ بطشه وعذابه وأن تتوب إليه.

فقد روىٰ الإمام البخاري ومسلم من حديث أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن

الرسول عليه الصلاة والسلام قال: «**إن الله ليملي للظالم حتىٰ إذا أخذه لم يفلته**»، فلا تأمن مكر الله وتقول: الله معي، الله يدفع عني، الله يتولىٰ حفظي. هذا صحيح، لكن من لم ينتفع بعناية الله به وحسن رعايته إياه بل بارز الله بالمعاصي والآثام لا يأمن أن يصرعه الله، فالله غيور علىٰ حقوقه وعلىٰ حقوق عباده، قال الله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩]، ومدح الله المؤمنين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ [المعارج:٢٧-٢٨].

لا تأمن علىٰ نفسك ما دمت تجرُّ البلاء إليها، ما دمت تتسبب في هلاكها، لا تأمن علىٰ نفسك من مباغتتك بالموت وأنت علىٰ غير توبة، فكن تائبًا إلىٰ الله وجادًّا في التوبة إليه.

وأخرج الإمام البيهقي في "الشُّعَب" وهو أثر رجاله ثقات: أن قصَّابًا ولع بجارية لبعض جيرانه فأرسلها أهلها إلىٰ حاجة لهم في قرية أخرىٰ، فتبعها فراودها عن نفسها، فقالت: لا تفعل لأنا أشد حُبًّا لك منك لي ولكني أخاف الله. قال: فأنت تخافينه وأنا لا أخافه؟ فرجع تائبًا".

وترك هذا السير المشؤوم وهو البحث عن النساء والتطلع إليهن واشتهاء النساء بالطرق المحرمة، كم هنالك ممن هو مبتلىٰ بهذا، عياذاً بالله!

احذر علىٰ نفسك أيها المسلم من أن تقع في هذا، وأخطر من هذا أن تُصر علىٰ ذنبك وعلىٰ خطئك، ولهذا ندعو المسلمين عمومًا إلىٰ التوبة إلىٰ الله،

وندعو أصحاب الجوالات التي صارت فيها المنكرات والذين أساؤوا استخدامها، حين استخدموها استخداماً سيئًا فصارت جوالاتهم مستنقعًا للرذائل والمنكرات.

فطِّهروا الجوالات، وفتشوا عما في الجوالات مما يغضب الله عز وجل من المنكرات، قال الله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور:٣٠]، فهؤلاء يفتحون أبصارهم ويظلون الساعات مع الجوالات وهم يشاهدون ما حرَّم الله، وربما كان هذا في بيت الله، بعضهم نُزِع منه الحياء، ذهب منه الخير والصلاح، فربما كان في المسجد وهو يعيش مع هذه المنكرات متطلعـًا إليها، مشاهداً لها، فرحـًا بها، بل بعضهم مُعجَبـًا بها، قد أفسدت عليه عقله وقلبه وأخلاقه وآدابه.

فاحذر أيها المسلم من البقاء علىٰ الآثام والأوزار، وعلىٰ البدع والضلالات، فالمطلوب أن نتوب إلىٰ علام الغيوب.

أستغفر الله، إنه هو الغفور الرحيم

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام علىٰ من لا نبي بعده، وعلىٰ آله وأصحابه، **أما بعد:**

تعلمون أن العشر الأواخر من رمضان قادمة علينا، وهي تُعد كالقمر في رمضان بجانب العشر الأُوَل والعشر الأواسط.

كان الرسول ﷺ يعتكف العشر الأُوَل من رمضان، ثم اعتكف العشر الأوسط من رمضان، ثم اعتكف العشر الأواخر من رمضان ومات وهو علىٰ ذلك.

ولماذا دام اعتكافه في العشر الأواخر من رمضان؟ لأن الله أطلعه أن ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان، وتعلمون أن ليلة القدر قد أنزل الله فيها سورة كاملة، فهذه الليلة هي ليلة خصَّ الله بها أمة الإسلام من بين سائر الأمم، كما قال بهذا جماهير المفسرين والفقهاء رحمهم الله تعالىٰ.

فهذه الليلة قال الله فيها: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣﴾ [القدر:٣] أي: العبادة في هذه الليلة خير من العبادة في ألف شهر، وهذا في باب النوافل والتطوعات.

فانظروا إلىٰ هذا الفضل العظيم من الله علىٰ هذه الأمة أنْ جعل لها ليلة تكون فيها الأجور لمن عمل في هذه الليلة كأجر من عمل في ألف شهر.

ألا ترضىٰ وتسابق وتنافس وتُقبل علىٰ زيادة إصلاح نفسك في بقية هذا

الشهر الكريم؟

فلهذا أيها المسلمون المطلوب إحياء العشر الأواخر من رمضان كما هو هَدْيُه عليه الصلاة والسلام، فقد جاء عند البخاري من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر شد مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله.

فهذا من اهتمامه بأمر العشر الأواخر.

وجاء عند النسائي من حديث النعمان رضي الله عنه قال: قمنا مع الرسول عليه الصلاة والسلام في شهر رمضان ليلة ثلاث وعشرين إلىٰ ثلث الليل الأول، ثم قمنا معه ليلة خمس وعشرين إلىٰ نصف الليل، ثم قمنا معه ليلة سبع وعشرين حتىٰ ظننا أن لا ندرك الفلاح، وكانوا يسمونه السحور.

وليالي العشر الأواخر من رمضان هي أفضل ليالي السنة، وليلة القدر أفضل ليلة علىٰ الإطلاق في عمرك، وهي باقية إلىٰ قيام الساعة.

فاحمدوا الله علىٰ هذا الخير، فلهذا ليكون منا زيادة الإقبال علىٰ الله عز وجل في هذه الليلة، ولا يشغلنك ما يضرك ولا ينفعك وما يؤخرك وما يباعدك عن ربك، فربما تموت عما قريب، فأقبل علىٰ شأنك.

فيا ويل من لقي الله بدون توبة وبدون مغفرة من الله لم ينلها ولم يتسبب في الحصول عليها، فقد جاء عن عدة من الصحابة رضي الله عنهم أن الرسول عليه الصلاة والسلام صعد علىٰ درجات المنبر، فقال في الأولىٰ: «آمين»، وقال في الثانية: «آمين»، وقال في الثالثة: «آمين». فقالوا: علىٰ ما أَمَّنت يا رسول الله؟

قال: «**أتاني جبريل فقال: يا محمد، من أدركه شهر رمضان فلم يُغفر له أبعده الله، فقل آمين، فقلت: آمين**».

اللهم إنا نسألك الهدىٰ والتقىٰ والعفاف والغنىٰ، اللهم لا تدع لنا ذنبًا إلا غفرته، ولا همًّا إلا فرَّجته، ولا دينًا إلا قضيته، ولا عدوًّا إلا قصمته، اللهم تقبل منا صلاتنا وصيامنا وقيامنا وصدقات المتصدقين منا، اللهم تقبل من المحسنين والتائبين والطائعين أعمالهم هذه يا أكرم الأكرمين ويا أرحم الراحمين.

اللهم انصر دينك، وانصر عبادك المجاهدين في فلسطين وفي كل مكان، اللهم انصرهم علىٰ أعدائهم، انصرهم علىٰ أعدائهم، انصرهم علىٰ أعدائهم، اللهم كن لهم ولا تكن عليهم، اللهم عليك باليهود والنصارىٰ المعتدين، اللهم عليك باليهود والنصارىٰ المعتدين إنهم لا يعجزونك، اللهم اشدد عليهم وطأتك، وأنزل عليهم بأسك الذي لا ترده عن القوم المجرمين.